

تأثير الشعر في بقاء اللغة الكوردية حية

طاهر طيب / كندا

عن الكتابة من اللغة الكوردية إلى اللغة العربية منهم على سبيل المثال لا الحصر ابن خلكان و ابن المستوفي، وفي العصر الحديث، قاسم أمين والعقاد وسهير القلماوي. ولعبت الدول الحديثة التي تكونت على أنقاض الدولة العثمانية أدواراً حادة للحد من انتشار اللغة الكوردية وتطويرها ومن ثم طمسها من الوجود، كلما تمكنوا منها. غير أنها استطاعت أن تصمد بوجه كل هذه التحديات بصورة شبيهة بالإعجاز؛ فما هو السر العجيب في بقاء هذه اللغة؟

يفتخر الشعب الكوردي مثل بقية الشعوب المجاورة له، كالعرب والفرس والترك، بالإرث الطيب لديه. وهو لم يكن قط يوماً مستعداً للتنازل (بالإكراه) عن خصوصياته. يقول شاعر الكورد الأكبر المتصوف (بابا طاهر، ٩٣٥-١٠١٠):

«لو اقتلعوا عيناى بالخنجر،

و أحرقوا عظامي بالنار

وقطعوا أوصالي إرباً

على أن أتخلى عن حبيبي الرحيمه، ما فعلت»

وعليه فإنه من المحال على الكوردي أن يتنازل، مهما كانت القوة المسلطة عليه، عن أهم شئ لديه وهو أجمل الحبيبات الرحيمات التي ورثها وهي لغته التي يستطيع بها التعبير عن هذا الحب الإلهي.

يدرك المتتبع لتاريخ الشعب الكوردي أنه قد مرّ عبر تاريخه بالكثير من القهر والتسلط لإجباره على التخلي عن هويته

تعتبر اللغة الكوردية التي يتكلم بها الآن أكثر من ثلاثين مليون نسمة ينحسرون بين جبال شديدة الوعورة جزأتها العوامل العرقية والسياسية بين تركيا و إيران والعراق وسوريا من أقدم اللغات التي صمدت بوجه التحديات لأكثر من أربعة آلاف عام؟!

يكن عناد هذه اللغة وإصرارها على البقاء في تشبث الكورد بها. ويأتي هذا التشبث العنيد لهذه الأمة بلغتها نتيجة عوامل عدة، غير أنني سوف أتطرق إلى تأثير الشعراء والمغنين في بقاء هذا الإعجاز شاخصاً إلى يومنا هذا، تاركاً العوامل الأخرى لأصحاب الشأن.

لو استثنينا الحقب التاريخية الأولى، منذ ظهور الكتابة وحتى سقوط إمبراطورية ميديا الكوردية، فإن هذه اللغة ظلت محاصرة من الأقوام التي كانت تقطن المنطقة أو التي جاءت ثم رحلت منها أو التي جاءت فحلت بها وحتى يومنا هذا. يعتبر العرب الذين غزوا بلاد الكورد تحت راية الإسلام من أول الأقوام التي فرضت حصاراً، ولو غير إجباري، على اللغة الكوردية. فقد أصبح الكوردي، بعد اعتناقه الاسلام، يسعى بكل إمكاناته إلى تعلم اللغة العربية؛ كي يستطيع أداء الصلاة وقراءة القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة بلغة الضاد وفهمها واستيعابها. أدت هذه الظاهرة المستحبة في المجتمع الكوردي إلى إهمال كبير للثقافة الكوردية وظهور كتاب بارعين وعلماء أعلام من بين الكورد وقد تحولوا

ولغته القوميتين وتراثه الخاص. لكنه ظل وفيًا دائمًا وأبدًا. وقد شهد أعداء هذا الشعب قبل أصدقائه له بالوفاء والاعتداد بالنفس والاستقامة وفي هذا المجال شهد ألد أعداء الكورد لهم حين قال عنهم: "لا يبقى لدى الكوردي أية زاوية مظلمة تجاه الشيء الذي يؤمن به." وحينما بدأت جذوة التمييز العنصري تعصف بمنطقتنا وعلت أصوات تنادي بالكتابة بلغات الشعوب التي تجاور الكورد، تاركين اللغة الكوردية، عندها لم ينس الشعراء الكورد دورهم في توعية العامة والخاصة بضرورة الحفاظ على لغتهم. وقد انبرى الشاعر (نالي، ١٧٩٧-١٨٥٥) للذين كانوا يدعون بأن اللغة الكوردية هي لغة من الدرجة الثانية ولا يمكن إنتاج أدب راق بها، فقال:-

"ليس لأحد أن يقولَ إنَّ ألفاظي كوردية، مصنوعة محليا؛

فليقرأ من كان ليس بجاهلٍ ما بين سطورها، كي يدرك معانيها ."
هكذا وضع شيخنا مفتاح الأمان ضد كل من تسول له نفسه انتقاد الكتابة باللغة الكوردية. وقد أصبح هذا البيت ولحد الآن أشهر من نار على علم عند عامة الكورد وخاصتهم ولم يجرأ أحد بعده أن ينتقد الكتابة باللغة الكوردية لنالأ يوصف بالجاهل.

ولكن لم يكتف الشعراء الكورد بهذا القدر من التصدي للدفاع عن لغتهم بل استمروا فيه و تجاوز بعضهم بعض المعايير. فقد هدم الشاعر حاجي قادر كويي، (١٨١٢-١٨٩٢) كثيرا من الحدود المتعارفة عندما أنشد:-

"لو لم يعرف كرديُّ التحدث بلغة أبيه؛
بالتأكيد إنَّ والدته فاحشة ووالده زانٍ

ولا بد أن يكون لدى القارئ العربي الكريم فكرة عن معنى هذا البيت الشديد القسوة في وصفه الإنسان الذي يترك لغة والده؛ لأن العرب متلهم مثل الكورد حريصون على صيانة الحرمات والالتزام بالتعفف. وصار الناس، حتى الأميون منهم، يتناولون هذين البيتين من أشعار كويي ونالي، يحفظونهما ويرددونهما في المجالس والدواوين العامة والخاصة

كالحكمة المتداولة. فأصبحت الحاجز الأكثر صلابة أمام مناوئي الكتابة باللغة الكوردية، من العسير عليهم اختراقه، خشية أن يوصفوا بما يكرهونها. يشكل هذان المثالان اللذان قبيلا بصدد حث الناس على الالتزام بلغتهم وعدم التفريط فيها؛ جزءاً يسيراً من الجهود التي بذلها الشعراء الكورد في سبيل إنقاذ لغتهم من النسيان والموت المحقق الذي أراده لها كثيرون لأنهم أدركوا أن بقائهم كأمة يكمن في الحفاظ على لغتهم.

أدت هذه الحملة وهي الأولى التي شنّها الشعراء الكورد من أجل حث مواطنيهم على التمسك بلغتهم الهدف المرجو منها، فاستطاعت هذه اللغة التغلب على الظروف العصيبة التي أحاطت بها كما باللغات القديمة والتي أدت إلى زوال كثير منها والاستمرار في النبض بحيوية بين المتكلمين بها. وأسفر نجاح الحملة عن توهج الثقة لدى الشعراء بما كانوا يكتبون. وهذا ما حدا بالشاعر حريق، (١٨٥١-١٩٠٧) إلى أن يكتب:-

هيا يا (حريق) أطلق العنان لفرس فصاحتك لترى من يجرؤ على الاستهانة بأشعارك!

هكذا تباهى الشعراء بفصاحة نتاجاتهم وتحدا بها الذين كانوا يريدون النيل من اللغة الكوردية، فاشتبهوا بين العامة والخاصة ونالوا احترامهم بكل جدارة. وعليه، فإن الشعر قد أثر بصورة مباشرة على الحياة العامة للإنسان العادي في كوردستان.

إن البقاء في الحياة يعني أن يتواصل الكائن الحي في العطاء الذي يساعد على أن يستمر في التقدم. ولغرض إنجاز هذا الهدف، لا بد من وجود أطراف تساعد المجتمع على ذلك. وهنا يمكنني أن أشخص طرفين أساسيين أزرأ كثيرا اللغة الكوردية وساهما في عملية ديمومتها وهما:-

١- رجال الدين:- كان من العيب أن لا يوجد مسجد أو جامع في كل قرية كوردية. وكان يؤخذ على أهل القرى عدم وجود رجل دين في الجامع لديهم. لذلك انتشرت المساجد والجوامع بشكل كبير

في القرى الكوردية في كوردستان . وكان إمام الجامع والذي يسميه الكورد (مهلا) يقوم بالإرشاد و التدريس والإمامة والخطابة. وفي مجال التدريس كان رجل الدين في القرية يدير مدرسة فيها طلاب يسمونهم أهل القرية (فهقي). وكانت تقوم أهل القرية التي فيها المدرسة بتأمين الغذاء والغسيل للطلاب. كان لرجل الدين وطلابه الدور الأكبر في استمرار و تعزيز و تطوير الأدب الكوردي و إنتاج الجديد الممتع من الأعمال الأدبية التي نالت رواجاً بين الناس. كما أن هذه الشريحة المثقفة من الناس أدت خدمات جليلة للغة الكوردية من حيث رفدها بالمزيد من المصطلحات التي أغنت المعاجم الكوردية. و نتيجة لشغف هذه الشرائح باللغة والأدب ظهرت مجموعة من الكتاب الذين اهتموا بالرواية والقصص الخيالية والملاحم والأغاني. ولم ينحصر دور هؤلاء بالدين واللغة والأدب فقط، بل نمت وتطورت الأيديولوجية الكوردية الحديثة من بين جدران تلك المساجد والجوامع. ظلت المدارس الدينية التي يسميها الكورد (حوجره) تلعب دوراً مباشراً وجذرياً في تشكيل الحياة الثقافية والاجتماعية و التربوية والسياسية الجديدة في كوردستان وحتى أوائل القرن العشرين .

٢- الإقطاع:- تتميز أرض الكورد بتنوع مصادرها الاقتصادية الغنية. وهي التي جلبت الشر والخير على أهلها في أن معا ، ونحن هنا بصدد الخير، ليس إلا. حيث أن الإنسان استطاع بطبيعته الاجتماعية أن يحدد له مناطق به خاصة لإقامة مجتمعاته فيها. وكان لكل جماعة يقطنون منطقة معينة أميرا إقطاعيا واحدا أو أكثر، يسمون (أغا، مير، بهگ، كويخا، باشا) بحسب المنطقة التي يتواجد فيه الأخ الأكبر. لعب هؤلاء الإقطاع في كوردستان، بالرغم من بعض المآخذ عليهم، دورا بارزا في الحفاظ على التراث الكوردي. ولأنهم كانوا أقوياء كانوا قادرين على فرض الإتاوات الغير شرعية على رعاياهم ما جعلتهم أغنياء. ولأنهم كانوا ميسورين فقد

حاولوا توفير أجواء البذخ لأنفسهم والعيش فيها. لذلك اتخذ كل واحد منهم له مغنين وقصاصين و شعراء يتمتعون بمراكز مرموقة لديهم وكانوا يغدقون عليهم الأموال ويؤمنون لهم المراكز في دواوينهم. وكانوا يتباهون فيما بينهم بما كان لديهم من هؤلاء الفنانين والأدباء ويقومون لهم المسابقات في الشعر والغناء وسرد الروايات، ويغدقون أكثر على المدعين منهم. وكان المغنون يتجولون بين بقايا الإقطاع الذين كانوا يتواجدون في إقليم كوردستان العراق حتى منتصف خمسينيات القرن الماضي.

احتفظ هؤلاء الشعراء والأدباء والفنانون بشعبية كبيرة بين العامة والخاصة. وكان مركزية كل واحد منهم تتحدد بمستوى الأداء الأدبي لديه. ولذلك ظل هؤلاء في سباق دائم مع الذات لتقديم الأفضل والحفاظ على المركز الأقوى. وكانت المجالس الشعرية التي كان الشعراء يتبارون فيها ويسمونها الناس (شهره شيعر) يكتظ بالقرويين. لعبت هذه المجالس التي كانت تعقد في كل مساء في مضيف (الأخ الكبير) دورا بارزا في الحفاظ على التراث الكوردي ونشره من خلال كون تلك المجالس عامة يمكن لكل من يرغب أن يحضرها ويشارك فيها. وكان الشاعر الخاسر الذي لا يتمكن من الرد على قصائد متحديه بقصائد مقبولة لدى الآخرين، يخرج خاسرا في هذه الحرب، دون جروح ولكن يحده الأمل في كرة أخرى. في حين يحظى الفائز ذي القصائد الجيدة بالمقام الرفيع. وهكذا يتضح مدى تأثير عقد مثل هذه الندوات على الناس ومدى تقريب اللغة إلي نفوسهم ناهيك عن الحث على الاستمرار في استعمالها. يقال عن الكورد إنهم شعراء بفطرتهم؛ لأنهم مولعون بالأدب. وقد أدى بهم ولعهم هذا إلى الحفاظ على الكثير من الدواوين الشعرية والقصص والملاحم التي حفظوها عن ظهر قلب ونقلوها جيلا بعد جيل مما وفر للغة الكوردية الغزير من المفردات اللغوية والتعابير الأدبية والاصطلاحية. وبقي الشعر الهاجس الأكبر لدى الناس فحظي بالاهتمام وذلك

لسهولة حفظه وعذوبة نظمه وشدوه ولعمق معانيه.

ونجح الشعراء في تشخيص خصال الكورد، وهو أمر لم يستطع غيرهم القيام به. يقول الشاعر الكوردي الكبير احمدي خاني، (١٦٥٠-١٧٠٦):-

"الرجولة و الهمة والسخاوة والقيادة والغيرة والجلادة

هن صفات حتمية الوجود لدى الكورد لأنهم ورثوها مع العدل،

بأي وجه حق بقي هؤلاء محرومون ولماذا هم بالجملة مدانون دون سبب؟"

يدين خاني كل الإجراءات التي كانت تتخذ دون وجه حق ضد الكورد. كما أن هذه القصيدة تعتبر إداة لكل الذين سبقوه ولم ينصفوا بني قومه.

وجذب آخرون انتباه الكورد إلى المآسي التي حلت بهم من قبل السلطات التي كانت تحتل بلاد الكورد والعرب؛ ينشد الشاعر سالم (١٨٠٠-١٨٦٦) -لذي عاش جزء من تلك الويلات، قائلاً:-

"يا قلب، افتح عينيك واعتبر من وضع هذا الدهر الدنيء

وانظر لترَ ماذا فعل درك الترك بالناطقين باللغة الكوردية!"

سجل سالم لحظة دقيقة من تاريخ أمته ودعا بني قومه إلى أن يعتبروا من تلك الأحداث. شاعت هذه القصائد بين الكورد ولا يزال الكثير منهم يستمعون إلى القراء الذين ينشدونها ويتأثرون بها وأنها أصبحت من التراث الحي لهذا الشعب.

وظل الشعر السلاح الأمضى للدفاع عن اللغة والتراث؛ فالشعراء اهتموا بهموم الناس وصاغوا أحلامهم وآمالهم وعبروا عن مكنون مشاعرهم وأسودوا لهم النصح؛ يقول الشاعر بيره ميرد، (١٨٦٧-١٩٥٠):-

"على الكريم ان ينصاع لمستخدمه؛ فالكوز ينحني للقدح وهو يملأه،

وأفهم المغزى من رفع الماء الخشب إلى أعلاه؛ فهو يعرف أنه من العار غطس ما كان رباه. وهنا تكمن العظمة.

يُقطف الثمار من الأغصان المثمرة الدانية دون عناء،

بينما تُرمى الأغصان المثمرة العالية بالحجارة أو تُرفَس بالأقدام ."

وهكذا يريد الشاعر أن يكون المرء كريما ومنصاعا حتى إلى الأقل منه شئنا، كما يجب عليه أن لا يتعجب من إساءة الغير إليه لأن ذات الشأن يكون معرضا للإساءة إليه من قبل الآخرين دائما، كما هي حال الأغصان المثمرة العالية.

وظل الناس في الغالب تحت التأثير المباشر للشعراء لأنهم قالوا ما لم يستطع غيرهم أن يقول، كما في قصيدة الشيخ رضا الطالباري، (١٨٣٥-١٩٠٩) حيث ينشد:-

"هذه القصيدة الكوردية هي زبدة متاع الحكمة؛ لو بعث كل حرف منها بكرة، لا زلت أنت الخاسر، ."

يحتوي ميزان الشاعر الطالباري في كفة على الشعر الذي هو زبدة الحكمة، تقابله الدرر، غير أن بائع الحكمة بالدرر هو الخاسر؛ لأن من لا حكمة له لا يستطيع بالضرورة الاحتفاظ بالدرر. فلا بد لك أنه يخسر الاثنين معا. وهنا جيئ تفضيل الشعر الكوردي على الدرر لأنه الحكمة بذاته والحكمة هي البقاء.

تغيرت الأوضاع في كوردستان والمناطق المحيطة بصورة جذرية في أواخر القرن التاسع عشر واستمرت حتى أوائل القرن العشرين. ولم تتخلف لا اللغة الكوردية ولا الأدب الكوردي ولا معاجمها عن تقبل التأثيرات التي حدثت بعد تلك التغييرات. ففي عام ١٨٩٨، صدرت جريدة (كوردستان). ويعتبر صدور هذه الصحيفة وفي ذلك الوقت بالذات، نقطة تحول في حياة الكورد في العصر الحديث؛ لأنها توجت الجهود التي كانت تبذل من أجل الحفاظ على اللغة الكوردية وفتحت الأبواب على مصراعها أمام انتشار فكرة (كوردايه تي) الداعية إلى توحيد الأمة واللاحق بركب الأمم والحصول على ما كان سائدا في ذلك الزمان، وهو (حق تقرير المصير للشعوب).

اصطدمت هذه الدعوة بفكرة التسلط العنصري الذي أنكر الوجود الكوردي. وتم إحلال معاهدة (لوزان) محل معاهدة

(سيفر) التي نصت على إعطاء حق تقرير المصير للأكراد. وبذلك أهملت تماما ذكر الكورد كأمة قائمة بذاتها في المنطقة، وإن المآسي التي طالت الشعب الكوردي ولا زالت هي من نتائج ذلك التغيير. وبذلك فشلت الدول ذات النفوذ مرة أخرى في إيجاد الحلول الناجعة لمشاكل العالم الثالث أو أنها تتقصد في استمرار تلك الويلات لكونهن من مصلحتها الاستراتيجية.

ارتكبت الفظائع ضد الكورد وتم سحق ثورة الشيخ سعيد پيران. وقد عكس الشعراء تلك الأحداث المرعبة في قصائدهم وسجلوها؛ وقام المغنون بشدو تلك القصائد ومنهم المغني الكلاسيكي (كاويس آغا، توفي حوالي منتصف القرن الماضي) والذي يشتكي في غنائه من فظاعة سجن العثمانيين ويستنجد بعشيرته مستصرخاً لعل من مجيب:-

"إن سجن الروم سجن فظيع جداً،

وقد اهترأت يداي داخل القيد؛

انجدوني يا أبناء العشيرة."

وفي العراق، قامت الطائرات البريطانية بقصف مدينة السليمانية في كردستان في العام ١٩١٩. وبدأت ثورة بارزان في العام ١٩٤٥. واستخدم الإنكليز أفكك الأسلحة التي كانت لديهم آنذاك فقامت القوات العراقية المعززة بقصف جوي من الطيران البريطاني، بضرب رجال قائد الحركة التحررية الكوردية المعاصرة ملا مصطفى بارزاني مما اضطر إلى ترك الديار التي ناضل من أجل تحريرها والتجأ إلى كردستان الإيرانية حيث التحق بقوات القاضي محمد وتم إعلان أول جمهورية كوردية في العام ١٩٤٥ لم يكن الوضع الكوردي في إيران بأحسن من غيرها؛ فقد سحق الشاه الأسبق رضا بهلوي، الثورة وأعدم القاضي محمد، فيما تمكن القائد ملا مصطفى البارزاني من المقاومة قاطعا الطريق الشائكة حتى وصل إلى الاتحاد السوفيتي السابق. وهكذا يفسر التاريخ الأوضاع في كردستان؛ إذ لم يبق جزء من هذه البلاد إلا وسال عليه دم شهيد.

يقول الشاعر المعاصر (عبدالله پهشيز):-

يقوم الوفد الزائر بلدا، بوضع إكليل من الزهور على قبر الجندي المجهول.

إذا زار وفد بلادي،

وسألني عن ضريح الجندي المجهول ليضع الإكليل،

أقول له:- سيدي،

عند ضفة كل ساقية،

وعلى منبر كل جامع،

أمام باب كل دار أو كنيسة أو مغارة،

فوق كل حجر في كل جبل،

عند أية شجرة في أي بستان في هذه البلاد،

فوق كل شبر من أرضها،

وتحت كل زراع من سمائها،

لا تخش شيئا؛

انحن قليلاً، وضع إكليلك، سيدي!

أية بلاد هذه التي تحولت مدنها وقرائها، سهولها ووديانها، جبالها وروابيها إلى أرض مقدسة يستطيع

الزائر أن يضع أكاليل وروده أينما يشاء! هذه هي بلاد الكورد التي حولتها

قوى متسلطة إلى دمار وخرائب تسقيها دماء الشباب. أدرك الشعراء أنه لا بد

من سبيل آخر لوقف النزيف المستمر؛ فالحرب حالة استثنائية والعقل لا بد

سينتصر في النهاية. دعا الشاعر احمد مختار جاف، (١٨٩٧-١٩٣٥) إلى التيقظ

والإلتحاق بركب الأمم قائلًا:-

"يا أمة الكورد هيا، استيقظوا من نومكم؛ فالنوم ليس من صالحكم

يشهد لكم تاريخ الامم بالفضل والفن والأدب

ناضلوا يا أيها القوم النجيب المظلوم واقطعوا بسرعة هذا الطريق الطويل

الذي أمامكم ."

دعا احمد مختار جاف قبل غيره من الناس إلى الالتزام بروح العصر و

التحول من السلاح إلى التيقظ وذكر بني قومه بأفضالهم على الناس وبما

كان لهم من فن وأدب ولم يذكر شيئا عن السلاح وقعفته بل استمر في

قصيدته ليحث الناس على:-

"ادرسوا؛ لأن الدراسة في كل أن وساعة تشكل

درعا ومتراسا يحفظكم من سيوف أعدائكم."

يعتبر الكثيرون أن (جاف) كان محقا فيما طلبه من بني قومه وإنه بهذه

القصائد قد مهد الطريق أمام الجيل الجديد من الشباب للإلتحاق بالمدارس

لطلب العلم وهو ما رفضته عدد من الأنظمة المتسلطة لأنها أدركت أن هذا

التوجه أخطر من حمل السلاح عليها ما جعلها تصدر قوانين بمنع الكورد

من التمتع بالدراسة بلغتهم بل وحتى التحدث بها. لذلك يخاطب الشاعر

بيكس، (١٩٠٥-١٩٤٨) وطنه قائلًا:-

"يا وطني، أنا لست غافلا عن ذكرك و عن التفكير فيك؛

فلا تظن أن السجن والتعذيب والإذلال قد نساني إياك ."

فالشعر هنا يوظف لخدمة الوطن ليبقيه في الضمائر. ولكن الظروف غير

مواتية الآن، لذلك يستمر بيكس في قصيدته إلى أن يقول:-

"كفى، ولا تطعنني أكثر؛ لأنني لازلت ذلك الإبن البار بك،

واصبر إلى أن تتحرر يداي ورجلاي (من القيود) ."

وهذا الطلب مشروع لأن السجنين المقيد هو في حكم المريض وأن ليس

على المريض حرج" ولكن ماذا بعد أن يفك قيده؟ يقول بيكس س:-

"عهد علي عهد الرجال، إن ساعدني الله

إني سوف أربط عدوك كالكلب وأرميه تحت قدميك ."

وعندها يمكن للكوردي أن يستمر في دعم وتطوير لغته كما يفعل عباد الله

كلهم. ويمكنهم أن يتحدثوا بلغتهم كما يشاؤون بحرية ويساهموا مع جيرانهم

في تعزيز الحضارة الانسانية ويقولوا ما يشاء الله لهم أن يقولوا بلغتهم الأم

التي له طراوة لا يضاهيها طعم آخر؛ فعندما أتحدث باللغة الكوردية أشعر

بالحروف تتعاقب لتكون الكلمات، وبالكلمات تتراصف راقصة على

لساني لتكون جملا، والجمل تجري كأنها النهر العذب لتعبر عن الحب

للقارئ الكريم.